الدور الحضاري لتصميم البيت العراقي في تكوين الوحدة المجتمعية

بسام ابراهيم علي

جامعة بغداد / كلية الاداب قسم الاثار

البيت في اللغة:-

البيت من بات في المكان أي اقام فيه وقت الليل، ورأيت يفعل كذا اذا فعله ليلا، وبيّت الشيء: دبره ليلا أو في الخفاء، والبيت المسكن، سواء كان من شعر أو مدر وهو مأوى الانسان بالليل، ويطلق عليه أيضا أسم المنزل بفتح الميم والزاي من النزول وهو الحلول[١] *.

والبيوت أصناف تختلف الواحدة عن الاخرى لغوياً وبحسب سعتها وصغرها وأرتفاعها وأمتدادها وأشكالها والمواد التي دخلت في بنائها ومنها الوعيب والصلهيب والاقور، للبيوت المتسعة، ومنها (العرزال والحفض) لصفة صغر المساحة ومنها (المجدل والصرح والعقر) للارتفاع في البناء، وقد وردت للبيوت أسماء ذكرها المؤرخون دون أعطاء سبب تسميتها بهذه الاسماء مثل الاحفاض والكمح والوشن والمباءة والطن والمغاني والربع وغيرها من الاسماء[٢].

مدخل لتأريخ البيت العراقي في الفترة الاسلامية:-

[١]- أبن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج1، ص293.

*وردت لفظة بيت في القران الكريم(73)مرة، ولفظة مسكن(69) مرة، ولفظة دار(55) مرة، وقد وردت بصيغة المفرد أو الجمع.

[٢] العبيدي، صلاح حسين والياور، طلعت، البيت العربي الاسلامي تخطيطياً ومصطلحاً، دورة اصالة انظمة المدينة العربية، مركز احياء التراث العلمي العربي، 1988، ص4.

يعد البيت العراقي في العصر الاسلامي من التكوينات المعمارية المهمة في تاريخ العمارة العربية الاسلامية ولعل تخطيطة بصورة عامة يرجع الى الدور والقصور التي بنيت في العراق منذ العصور السابقة للاسلام[1]، كما أن تأثيرات اقسام هذا التخطيط أمتدت الى خارج حدود بلاد وادي الرافدين، كما حدث في الاقباء والقباب على سبيل المثال والتي أستعملها سكان بلاد والرافدين قبل أن يعرفها الرومان بألوف السنين ولعلها أنتقلت أليهم عن طريق الاثروسكيين *، الذين هاجروا من اسيا الغربية واستوطنوا أواسط أيطاليا في الألف الأول قبل الميلاد[2].

ولتستمر هذه التأثيرات والانتقالات من مكان الى اخر وخلال الفترات اللاحقة، حيث أنتقل الطراز الحيري* المعروف في العراق الى الشام فنراه متمثلا في بيوت القسطل وقصر المشتى والطوبة والحرانة ويتجلى كذلك في العمارة المصرية ابان حكم احمد بن طولون الذي ولد وعاش في سامراء سنة 221هـ/ 835 م والذي يشير الى ان الدور المصرية قد تاثرث باساليب البيت العراقي على وجه العموم بدور سامراء سواء كان وذلك من الناحية المعمارية او الزخرفية وليس من المستبعد أن هذا الطراز الحيري العراقي قد انتقل ايضا الى الاندلس في عصر عبد الرحمن الناصر والذي اعلن الخلافة الاموية في الاندلس سنة 316هـ/ 929م، ويظهر هذا الطراز بصورة جلية في مخطط قصر الزهراء في مجلس عبد الرحمن الناصر (دار الملك)[3]، واذ أخذنا أيضا على سبيل المثال بيوت قصر الاخيضر وما تشكله هذه البيوت من صورة واضحة لنا عن تصميم البيوت في تلك الفترة (الفترة العباسية)، حيث يتكون البيت الواحد من صحن اقيم في طرفيه المتقابلين جناحان يتألف كل منها من بهو واسع كالايوان، وعلى جانبيه غرفتان مفتوحان عليه، وعلى

---

[1] خضير، فريال مصطفى، البيت العربي في العراق في العصر الاسلامي، المؤسسة العامة للاثار والتراث، بغداد، 1983، ص9.

* الاتروسكيين: وهم سكان منطقة توسكانا الحالية في ايطاليا القديمة وقد أطلق عليهم الرومان القدماء أسم اتروسكي او توسكي واتروريا هو الاسم الكامل لمنطقتهم.

[2] الريحاوي، عبد القادر، البيت في المشرق العربي الاسلامي، 1987. ص47.

* يذكر المسعودي أن الخلفية المتوكل على الله أحدث في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفرنه، وهو المعروف بـ (الحيري والكمين والاروقة) وبذلك أن بعض سمارة حدثوه في بعض الليالي، أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصير أحدث بنيانا في دار قراره وهي(الحيره) على صورة الحرب وهيئتها للهجه بها وميله أليها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو المصدر والكمان ميمنة وميسرة. ويكون في البيتين هما الكمان من يقرب أليه من خواصه. وفي اليمين منها خزانة الكسوة. وفي الشمال ما أحتيج أليه من الشراب، والرواق قد عم فضاؤه، الصدر والكمين، والابواب الثلاثة على الرواق، فسمي هذا البناء(الحيري والكمين) المسعودي، أبي الحسن على بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح4، مصر 1965،ص87.

[3] خضير، فريال مصطفى، نشأة وتطور الطراز الحيري في البيت العراقي، وقائق المؤتمر التاسع / الاثار الاسلامية في الوطن العربي، تونس، 1980، ص101.

الصحن، وتميز في هذه الاجنحه شكلين من التخطيط، فبعض البيوت يتقدم أجنحتها السكنية رواق مسقف ذو ثلاث فتحات وقد تحول البهو الى ايوان حقيقي وبعضها خلا من الرواق[1].

فقه بناء البيوت الاسلامية:

من مبدأ (لا ضرر ولا ضرار) حددت التعاليم الاسلامية نظام الحياة الاسرية في المجتمع الاسلامي وبما يحافظ على الحرمات والعرض، وأصبحت العمارة بذلك ذات سلوك عام، حرص عليه السكان وحققوا من خلاله الخصوصية التي أثرت تأثيرا واضحا في الحياة الاجتماعية وبالتالي في التكوينات المعمارية لمدينتهم التي سكنوها.

وقد فعلت هذه التعاليم في شروط منها الارتفاعات بالمباني وتنظيم المطلات على الشوراع بطريقة خاصة، وكذلك فتح الابواب عليها، كل ذلك كان مشروطا بعدم الاضرار بالجار أو المار، فاذا تسبب الارتفاع على سبيل المثال بألحاق الاذى منع، وان لم يتسبب سمح به، كما حددت الاحكام الفقهيه العلاقة بين المباني السكينة في الحي الواحد، خصوصا بما يتعلق بمطلات المباني وأبوابها ولتمنع كشف الحرمات وتحقق الخصوصية لساكنيها. فمثلا أجيز أنشا (المناور الحائطية) من حرم المجيران وذلك للسماح للضوء والهواء الوصول الى المساكن على أن لا يتم الاطلال عليها الامن نوافذ تكون مرتفعة تحفظ الخصوصية لهذه الاماكن، كما جرت العادة على استغلال الاسطح استغلالاً خاصاً في أغراض المعيشة وخصوصا في فصل الصيف والنوم فيه ليلا على أن يتم تجنب النظر ومعالجة هذه الامور خلال عملية الصعود بستر السلم والسطح لبسترة معمارية.

وعن أبن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم (لاضرر والاضرار للرجل أن يضع خشبة في حائط جاره، وأذا أختلفتم في الطريق فأجعلوها اذرعا)، في هذا التوجه تبرز النظرة الاقتصادية أيضا فبتقليل الكلفة (كلفة البناء) عن طريق تقليل العناصر الحاملة ودعوة الرسول الكريم (ص) الناس في ثنايا أحاديثه، الى فضل المنزل الواسع، اذا ما سمحت الظروف بأمتلاكه أو انشائه، كما وجهت احاديثه الشريفة الى ضرورة التواري عن اعين الناس فكان تخطيط المباني السكينة وتوزيعاتها الداخلية منسجمة مع توجيهات الرسول الكريم محمد (ص)، كان لها أثر أيضا، في الحاق بيوت الخلاء ببيوت المدينة، لكي لا تخرج النساء الى الخلاء لقضاء حاجتهن، فاكتملت بذلك الخدمات الصحية داخل المنزل[2].

وتصور الآيات القرانية، والأحاديث النبوية تراحم المؤمنين وترابطهم فيما بينهم بالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضاً، ولذلك فأن تداخل البناء وتماسكة كان جزءً من الادب العمراني للمدينة الاسلامية، ومن الطريف في المدن القديمة التي تتداعى حالياً بسبب قلة الرعاية والصيانة أنها عندما تنهار الدار الواحد

---

1 – [1] الريحاوي، عبد القادر، المرجع السابق، ص49.

[2] تنبكجي، عماد محمد عدنان، النظرة المعمارية لمسألتي السكن والاسكان، دار دمشق للطباعة الصحافة والنشر، ط1، 1991، ص23.

فأن الدور الاخرى المحيطة بها والملاصقة لها تبدأ هي الاخرى بالتآكل والانهيار التدريجي، وذلك بفعل الاشتراك في الحوائط والسقوف والأسس. وقد تكون توصية الرسول(ص) للمسلمين بتقديم المعونات بعضهم لبعض مثل السماح للجار بغرز خشبه والأشتراك في الجدران، هي العامل الاساسي في نشأة هذا التلاحم بين المباني الذي يغلب طابعه على المدن القديمة من المحيط الى الخليج[١].

لقد كانت بيوت المسلمين في الفترة الاولى من فتح العراق وتأسيس أمصارها الاولى (البصرة والكوفة)، بسيطة ولا ترتقي الى فكرة العمارة المتكاملة على الرغم من أنها جاءت ضمن خطط عامة تم توزيعها على القبائل المشتركة في الفتح حينذاك، وهذه البيوت كانت بسيطة التخطيط مبنية بالقش أو القصب لانها كانت منازل موقتة لاقامة الجند وعوائلهم فيذكر البلاذري (كانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووصفوه حتى يرجعوا من الغزو فأذا رجعوا أعادوا بناءه..)[٢].

في حين كانت بيوت الكوفة حينما انشات سنة (17هـ) تتألف من حجرة واحدة أو حجرتين أو ثلاثة، وهذه كانت ارادة الخليفة عمر (رض) بأن تكون البيوت بسيطة ومن طابق واحد لا ترتفع في البناءة.

وبعد الحريق الذي أصاب بيوت الكوفه والبصرة حيث كان حريق الكوفة أشد على الناس حيث أحترقت تمانون عريشا، فستأذن القائد سعد بن أبي وقاص الخلفية في البناء باللبن فجاء الامر بالموافقة فقال (أفعلوا، لا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تتطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة...).

في الحقيقة لم يكن هذا التحديد بصفة التحريم والمنع بل حسب ضننا أنه جاء تماشياً مع الفكرة التي طرحها الرسول محمد (ص) حين بنى أحد المسلمين الانصار قبه فوق بينه فتطاول في البناء مما أزعج الرسول محمد (ص) حتى قام هذا الشخص بأزالتها بعدما شكا اعراض الرسول عنه فأخبره الصحابه بالسبب[٣]، ولعل هذا التصرف لم يأتي من قبل الرسول الا ليحث الناس على عدم التفاخر والتمايز فيما بينهم وللمحافظة على الطراز الواحد الذي كان سائدا في المدينة.

يتضح مما سبق ان تقسيم المدينة الاسلامية الى خطط (محلات سكنية)، جاء أنعكاسا للصياغة الاسلامية، التي حاولت الموافقة بين الطبيعة القبلية، والتأكيد على صلة الرحم بين القلبية الواحدة، وبين جميع هذه القبائل في خطط متعددة تجمعها مدينة واحدة ذات كيان مادي متكامل، وأطار أجتماعي أشمل وأعم، وهو أطار التأخي في الاسلام[٤].

---

[١] حموش، مصطفى، جوهر التمدن الاسلامي، لبنان، 2006، ص51.

[٢] البلاذري، ابي العباس احمد بن يحيى، فتوح البلدان، طبعة يرويل، ليدن، 1866، ص347.

[٣] أبي دواود، سليمان بن الاشعت الازدي السحبستاني، ج4، 2009، ص36.

[٤] تتبكجبي، عماد محمد عدنان، النظره المعمارية. لمسالتي السكن والاسكان، 1991، ص19.

خصائص مباني البيوت العراقية القديمة :-

ان من ابرز خصائص مباني البيوت العراقية القديمة أو التراثية، هي القدرة العالية للمعمار العراقي على أحتواء خصائص الارض والبيئة المحلية، وتوضيف المتطلبات الوظيفية للمباني وخلق الانسجام بينها وبين مواء البناء المتوفرة، وذلك للوصول الى مبانٍ ذات شكل ومضمون يحقق الاستخدام الأفضل للانسان سواء كان ذلك في أطار أستخدام العائلة الواحدة للبيت، أو الاستخدام الجماعي للوحدات السكنية في القرى والمدن القديمة وهذا ما يصطلح عليه اليوم بالتخطيط الحضري[١].

أن حلم الانسان في معيشته أرتكز في أغلب الأحيان على توفير ثلاثة محاور رئيسية في تصميم بيته وهي (الامن، والراحة، والاستقرار) وأن تحقيق هذه المحاور يختلف باختلاف الزمان والمكان ومستوى الفرد من حيث الفقر والغنى، كما يعتبر هذا البيت أحد أوجه المظاهر الثقافية والحضارية للاسرة والمجتمع، وهو الخلية الاساسية للمدينة ومحور نموها وتنظيمها وتطورها[٢].

يتكون البيت العراقي العربي عادة من طابق واحدا أو طابقين وبمعدل مساحة لاتزيد عن 100م2، وقد تصل الى 200م2 في المساحات الكبيرة ومعدل البناء في هذه المساحة يترواح بين (80-100%) وأن هناك بيوت كثيرة لاتزيد مساحتها عن 50م وهذا مؤشر مهم جدا على براعة المهندس على أستغلال هذه المساحة الصغيرة وتوفير المرافق الكافية لسكن العائلة وتحقيق متطلباتها [٣]، ومن مميزات تصميم البيوت العربية الاسلامية يبرز عنصر المفاجاة من خلال انتقال الافراد من المحلات الضيقة للشوراع الخارجية والى فتحات الابواب التي لا تتجاوز المتر الى الممرات الضيقة نسبيا قبل الوصل الى باحة البيت حيث الفراغ الواسع الفسيح السماوي، فتبرز هنا المفأجاة التي تدخل البهجه والسرور في نفوس مشاهديها [٤]، كما أن للانتقال المباشر من الشارع الرئيسي الى الزقاق الذي يوصلنا بالدار مباشرة ضرورة نفسية حسنه توازن النظام الدقيق في انتقال الفرد ضمن بيئة سكنية صحيحة ذات جوانب أجتماعية، وأعراف وتقاليد وقيم، أن هذا التدرج يجب المحافظة عليه واداخله في تخطيط المدينة العربية المعاصرة بمعنى أستخدام التدرج في محتويات خطوط حركة المشاة من الشارع العام الى الزقاق الذي يوصل الى باب الدار [٥]، وهنا نلاحظ ظاهرة

---

[١] عبد الرسول، سليمة، المباني التراثية في بغداد، دراسة ميدانية لجانب الكرخ، العراق، 1987، ص10

[٢] الريحاوي، عبد القادر، البيت في المشرق العربي الاسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص46.

[٣] كمونة، حيدر، الخصوصية التراثية لتصميم المسكن العربي، مجلة التراث والحضارة، العدد 6-7، 1984، ص119.

[٤] علي، بسام أبراهيم، الفناء الوسطي المكشوف في العمارة العراقية حتى نهاية العصر العباسي، ص 100.

[٥] كمونة، حيدر، أهم العناصر التخطيطية والمعمارية لمكونات المدينة العربية القديمة، مركز التخطيط الحضري والاقليمي، دورة اصالة انظمة المدينة العربية، 1988 ، ص6.

تناكب الابواب الخارجية، وهي مظهر من مظاهر الخصوصية، على طريقة تخطيط المنازل، ولتحقيق هذه الخصوصية، سعى المصمم الى تخطيط مداخل البيوت بطريقة تمنع كشف ما يجري في الداخل، وتمثل هذا التخطيط بأنشاء دهليز أو ممر ملتو أو منكسر، يؤدي أليه الباب المطل على الشارع، يقود الممر الى باب جابني أخر، يؤدي الى الصحن أو فناء المنزل، وبهذا تجنب المعمار ترك بابي الدخول على محور واحد، فأتاح حرية مطلقة في التحرك لجميع من هم بداخل المنزل وفي الغالب يتم تصميم المدخل كمرر او فضاء انتقالي يسمح لاهل البيت بالتهيؤ للخروج او للغريب بالانتضار ريثما يستعد اهل البيت لاستقباله ولذلك يزود احياناً بمقاعد واثاث مناسب لهذه الوظائف[١].

ومن مظاهر حجب الرؤية قلة عدد نوافذ الطابق الارضي، وصغرها، مما أدى الى تخصيص فراغات الطابق الارض للتخزين، بينهما خصصت الطوابق العاليا للمعيشة، فكانت مرتفعة عن مستوى أرضية الشارع، ومحمية من فضول المارة [٢]، أما قاعات الاستقبال في المنازل فقد صممت تصميماً خاصا، حيث وضعت غالباً في الطابق الارضي بعيدا عن غرف المعيشة والنوم، وفي الفترات المملوكية والعثمانية كانت هذه القاعات تقام بحيث تتمكن النساء في البيت من مشاهدة تلك الحفلات في دون أن يراهن أحد[٣].

هناك ضررة لدراسة البيت العربي القديم في ضوء عناصر الحياة الانسانية متجمعة والتي شكل البيت جزءاً مكملاً لها، ولا يمكن دراسته وفهم عناصره ومخططه ومرافقة الا من خلال دراسة العلاقة الوظيفية لعناصر البيت مع الحاجات الانسانية لساكني البيت العربي الاسلامي في العرق وسواء كانت هذه الاحتياجات انسانية او اقتصادية او بيئية او فكرية او اي جانب اخر في حياة الناس يترك اثره على الجوانب العمارية للمسكن[٤].

ويتماز المسكن العربي التقليدي بالمبادى التالية:-

1 -عدم أهتمامه بالمظهر الخارجي.

2 -أنكفاء المسكن على صحن داخلي.

3 -وجود الايوان

4 -تقسيم المسكن الى قسم داخلي للضيوف واخر للخدمات ويتكون المسكن العربي التراثي من الفضاءات التالية:-

- مدخل رئيسي للمسكن
- صحن المسكن ويترواح بين (3 م2) الى (10م2).

[١] حموش، مصطفى، جوهر التمدن الاسلامي، دراسة في فقه العمران، دار قابس، ط1، لبنان، 2006، ص51.

[٢] علي، بسام أبراهيم، الفناء الوسطي المكشوف في العمارة العراقية حتى نهاية العصر العباسيرسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك الاردنية، 2000، ص120.

[٣] المصدر نفسه، ص125.

[٤] عبد الرسول، المرجع السابق، ص21.

- سرداب وقد تحتوي بعض البيوت على سردابين أو ثلاثة.
- الايوان وهو عبارة عن غرفة مفتوحة بأتجاه الصحن ويختلف موقعه بالنسبة للمسكن.
- الغرف وهي فضاءات في داخل المسكن ويترواح عدد بين(1-7) غرفة ومساحتها (2-3م) في المساكن الصغيرة و(4-5م) في المساكن الكبيرة.
- السلم وسطح المسكن ويكون سلم الطابق العلوي المؤدي الى السطح فوق سلم الطابق الاسفل عادة وفي أحدى زوايا المسكن [١]، أن هذه الفضاءات وحدت الكتلة البنائية ووضعت اجزائها في خدمة ساكنيها فالمدخل ذو استخدمات متعددة كما ذكرنا سابقا.

فهو توفير الخصوصية للمسكن وكذلك الفصل بين الفضاءات الداخلية والخاجية ودرء المخاطر القادمة من خارج البناء وللصحن ناحية أجتماعية ونفسية ويمكن أعتبار الصحن النافذة التي يطل منها الانسان على الكون اللانهائي والتي تظله على الدوام قبة السماء، بشمسها ونجومها وغيومها وهو يحس بالحرية المطلقة والهدوء والمطأنينة، والصحن مكان ألتقاء ألاسره وتعاونهم ومكان للجلسات الصباحية والمسائية، واللقاءات الاجتماعية فهو أحسن مكان لاحياء الحفلات والسهرات ومكان رحب لمناسبات الافراح والاتراح[٢].

وقد اثبتت التجارب ان الصحن المكشوف هو اكثر التصاميم ملائمة بما له من امكانيات عالية تسد حاجة هذا النمط المعماري، حيث شمل اغلب المباني وجعل الحياة في البيوت غاية في الامان، وذلك لتوجيه جميع فتحات البيت الى الداخل دون الحاجة الى فتح فتحات الى الخارج سوى بعض الفتحات الصغيرة لتبديل الهواء، لذلك اصبح الفناء مكان التجمع العائلي ولعب الاطفال ومكان نوم بعض الاسر التي تفتقر بيوتها لستارة، وبذلك اصبح النشاط المنزلي محيطاً به من كل الجوانب [٣]. اما السرداب فهو مكان متعدد الاستعمالات منها النوم وقت القيلولة ظهراً وكذلك لخزن بعض المواد الغذائية التي تتعرض للتلف وفي هذه الحالة يكون السرداب قليل العمق والسبب في قلة عمقه يعود الى قرب المياه الجوفية من مستوى سطح الارض[٤].

اما الايوان فهو عبارة عن غرفة مفتوحة باتجاه الصحن ويختلف موقعه بالنسبة للمسكن فقد يكون احيانا قريبا من الممر والممشى لانه في هذه الحالة يوفر الاستقلالية لافراد العائلة أو قد يكون بعيدا عن الممشى وفي كلتا الحالتين تجاوره غرفة واحدة أو غرفتان ولان هذه الغرف تستعمل عادة لنوم الضيوف الذين يزورون العائلة، لان الايوان يكون محلاً للجلوس (مضيف) وهذا الايوان يكون مرتفعاً بمقدار درجة واحدة عن

---

[١] كمونة، حيدر، الخصوصية، التراثية لتصميم السكن العربي، 122-131.

[٢] الرويحاي، عبد القادر، المرجع السابق، ص57.

[٣] الدراجي، حميد محمد حسن، نشأة البيت البغدادي وتطوره عبر العصور الوسطى، بغداد، 2018، ص102.

[٤] حسن، حميد محمد، البيت التراثي البصري تخطيطية وعمارتة، دور البصرة في التراث العالمي الربي، 1991، ص446.

مستوى أرضية الصحن[١]، وأن أفضل ربط بين الوحدات الداخلية والفناء الوسطي قد تتحقق بأستخدام الاواوين التي تمثل المساحة المسقوف، من خلال الانتقال من الغرف الجانبية الى الايوان الذي يعتبر فضاء عائلي خاص بينما يعتبر الفناء الوسطي المكشوف فضاء عائلي عام[٢]، أما الغرف فهي عبارة عن فضاءات مسقفة داخل المسكن تستعمل عادة للنوم والفعاليات والنشاطات الاخرى لافراد العائلة وهي تختلف بالحجم والعدد من مسكن الى أخر وحسب مقدرة صاحب المسكن المادية وهي موزعة على طابقيين يكون ارتفاع الطابق الارضي أقل من الطابق العلوي وتفتح في جدرانها الكوى (الروازين) المتعددة ولتخفيف سمك الجدار والاستفادة منها كدواليب أو رفوف لاستعمالات أخرى، وقد يحتوي البيت على طابق وسطي تنشأ فيه غرف خاصة صغيرة تسمى (كبشكان) أو (كفشكان) وتستعمل لاغراض الخزن أو لاقامة الخدم وتكون عادة منعزلة عن المرافق العائلية[٣].

ومن ذلك يتبين لنا من المفهوم المعماري لتراثنا السكني أنه يتألف من عناصر أساسية تعتمد على الربط بين الفضاء المكشوف والدور المباشر ومرورا بالفضاء نصف المكشوف، ثم انتهاءً بالفضاء المسقوف ذي الاضاءة الداخلية، وأن الاروقة تلعب دوراً وظيفيا مهما في الحياة اليومية، باعتبارها حلقة الوصل التي تجمع بين وحدات الغرف الداخلية والفضاءات المشكوفة والاروقة شبه المشكوفة التي ساعدت على حماية المسكن وقللت من الحرارة المباشرة الساقطة عليها من أشعة الشمس صيفاً والتقليل من سطوح الشمس المباشر على الغرف الجانبية، وكذلك التقليل من تأثير الامطار أن وجدت على ساكني البيت خلال تتقلهم بين وحدات البيت الواحد.

يمكن اطلاق صفة الكثافة السكانية على المدينة الاسلامية وكانت هذه الصفحة تنتج أحيانا عن حالة الزيادة في عدد سكانها الناجم عن ازديا نفوس احدى الطوائف في محلتهم السكنية، فلا يترك السكان الفائضون محلتهم الى محلة أخرى لان ذلك كان وحسب الاعراف غير مستساغ في تلك العهود. بل يحاول سكنة المحلة أستيعاب هذه الزيادة عن طريق بيع جزء من عقاراتهم الى ابناء جلدتهم، وهذا بالطبع يزيد من الكثافة السكانية بمرور الزمن، ولذلك أصبح من الضرروي في تصميم المساكن العربية حل اشكالية النمو المتزايد للسكان فجاء التخطيط محققا لهذه الحاجات بطريقة ميسرة لكل المساحات المتوفرة لكل صاحب أرض[٤]، وفي الحقيقة أن سكان مدننا عاشوا حتى الامس القريب مستمتعين بالحياة فيها، فالحياة البيتية هي الركيزة التي يقوم عليها كيان المجتمع الصالح وتنمو فيه الشخصية السويه [٥] وقد ورد في الحديث النبوي

---

[١] كمونة، حيدر، الخصوصية التراثية لتصميم المسكن العربي، مركز التخطيط الحضري الاقليمي، بغداد، 1985، ص127.

[٢] علي، بسام أبراهيم، الفناء الوسطي المكشوف في العمارة العراقية حتى نهاية العصر العباسي، ص 144.

[٣] كمونه، حيدر، الخصوصية التراثية لتصميم المسكن العربي، ص 128.

[٤] كمونة، حيدر، الخصوصية التراثية لتصميم المسكن العربي،ص 199 .

[٥] الوردي، علي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ، ص277.

الشريف (رحم الله من جعل بيته جنته)، مما يجد ذكره أن روح الجيرة أخذت تضعف وتتفكك من جراء التوسع الذي حدث على المدن في الاونة الاخيرة، فقد أدى هذا التوسع الى أن ينتقل الناس من بيوتهم القديمة الى بيوت جديدة في الضواحي. والواقع أن المحلات الحديثة التي أخذت تنمو في الضواحي لم تستطيع أن تحافظ على روح الجيره القديمة كل المحافظة، فالناس ينتقلون اليها فورادى، وقد تسطير عليهم عندئذ النزعة الفردية فاذا اختار احدهم ارضاً ليبني عليها داره، فهو لايبالى عادة لا يبالي أي نوع من الناس يجاورنه، وان سكان الضواحي لايزالون يحملون في أعماق أنفسهم بقية من روح الجيرة القديمة [1]، ولاشك أن الانتباه الى المدن القديمة في العالم يأخذ أتجاه عالمي اليوم، ومن المحزن أن الحداثة السطحية التي أسست مواقع بيوتنا في بلداتنا اليوم تجهل أو تعارض الاتجاه العالمي المتحضر والساعي الى حماية مدننا القديمة، ولا شك ان حماية المدينة كنمط سكني، لاتجيب على سؤال أليس للمعاصرين حقوق بانشاء عمارتهم؟، ولسنا وحدنا من يواجه هذا السؤال، لذلك تنوعت الاجابات وتناسبت مع المهارة العلمية والفنية ومع غنى الارث المعماري والموقف منه لقد كانت الاجيال تصوغ مدناً في قرون الزمان وكانت تطرزها وتزينها بهدوء، مستندة الى الخبرة التي تستبعد الخطأ وترسخ الصواب، وفي عصرنا لتصنع الاحياء والمدن في سرعة وقد يحل ذلك ازمة السكن، وقد يبهر المعاصرين الابتكار والسرعة في تغيير التضاريس، لكنه في حده الاخر يدمر المدن القديمة دون حرب، ويجعل الاجيال المعاصرة خارج تراثها وذاكرتها، اذ لم تستلهم التراث[2].

وتحافظ على اواصر الاسرة التي هي نواة المجتمع، فقد حرمتنا تصاميم مدننا الجديدة من المشي وسجنتنا منفردين في علب منفردة وعزلتنا عن الطبيعة وجردتنا من العلاقات الانسانية في مدن شاقولية او برجية او بيوت ذات مسقفات منفصلة لا يجمعها رابط معماري تمارس فيه انشطة البيت الواحد كالصحن الوسطي الذي يشترك فيه جميع ساكني البيت الواحد او سطح البيت الذي كان مكان نوم العائلة ليلاً حتى يتخلصوا من الحرارة المرتفعة التي تميزت بها بيئتنا الشبه الصحراوية وان ثوابت الحياة لدى الناس لا تتغير وان تغيرت فبنسب محددة ومنها العامل الجغرافي والعامل الديني والتقاليد الاجتماعية، وان هذا التغيير ليس الا ظاهرة سطحية يكاد يقتصر انتشارها بين بعض الخواص من الناس، ويبقى الجوهر هو الاساس في المعتقدات الدينية والتقاليد الاجتماعية الاسلامية التي ظلت سليمة في اعماق ونفوس الكثير من العرب المسلمين، وان تخطيط وتكوينات عناصر البيوت العربية الاسلامية لا تزال صالحة الاستخدام وتلبي حاجات الناس من العرب والمسلمين في الحاضر والمستقبل[3].

ان اصحاب الاغراء المادي يوهمون اصحاب البيوت العربية اليوم ان مشاكلهم المالية ستحل اذا هدموا بيوت الاجداد وعندئذ يصطدم طلب حماية بيت تاريخي او حي عربي، او هوية مدينة بقوة مالية ذات

---

[1] الوردي، على دراسة في طبيعية المجتمع العراقي، ص 275.

[2] خوست، نادية، المدن العربية والمعاصرة، مجلة معماريون، الاردن، 1995، ص42.

[3] شافعي، فريد، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، 1982، ص127.

مصلحة في هدم المدينة العربية تستند الى مصطلحات المعاصرة والتحديث [1]، ومن هنا تختلف النظرة العامة بعين الناظر الى المدينة الاسلامية القديمة عنها الى المدينة الحديثة، ويظهر هذا الاختلاف في التباين الكبير بين حجم المدينتين، وهو ما يجب ان يستوعبه المخطط عندما يبدأ بوضع التشكيل العام للمدينة المعاصرة وهو يحاول ربطها بالتراث الحضاري للمدينة القديمة، فحجم المدينة القديمة يقل كثيراً عن حجم الحي الواحد في المدينة المعاصرة بعد اتساعها الشاسع[2]، اننا نلاحظ اليوم ان البيوت اصبحت مأوئ لساكنيها ومكان لمعيشتهم في حين ضعفت الروابط الاجتماعية الى درجة كبيرة بين افراد الاسرة الواحدة، فنحن نعلم جميعاً ان حياة العولمة الجديدة التي تعيشها الشعوب والمتطلبات الكثيرة للحياة بعدما تعقدت سبل المعيشة اضفت على طبيعة الحياة نوع من الانعزال والرتابة داخل البيت الواحد، بينما كانت هذه الاسر في السابق تعيش في احضان بيت واحد يجمعها مسمى (بيت العائلة) ترى النساء فيه وكأنهن فريق واحد وقد توزعت مهام العمل في هذا البيت بين كل واحدة منهن اما الاطفال فهم اما في ساحة البيت المكشوفة او فوق سطحه او يعلبون ويركضون بين اروقة البيت التي تلتف حول الوحدات السكنية في حين خرج الرجال الى اعمالهم منذ الصباح الباكر ليعودوا ظهراً الى هذا الحيز المكاني (البيت) وهم في شوق لتناول الطعام واخذ بعض الراحة بعد ان انهكتهم حرارة الجو اللاهب التي اختصت بها بيئتنا الجغرافية هذه المفردات التي يصبوا اليها ساكنوا هذه البيوت كانت تتحقق لهم من خلال تصميم بيوتهم التي وضعت لتتلائم مع متطلبات الحياة الدينية والبيئية والاقتصادية التي فرضتها معيشتهم في هذا المكان من المعمورة مع الاخذ بعين الاعتبار ان توفر هذه السبل قد تحقق بكل بساطة ودون تعقيدات تكنولوجية للتغلب على صعوبات الحياة البيتية وكما يحدث اليوم، لذلك نحن اليوم مطالبون بالحفاظ على هذا النسيج الاجتماعي من خلال توفر البيئة الملائمة للعيش ودون الغاء الحداثة ولكن بالاستفادة من تجارب من سبقونا من الاباء والاجداد ونحن نتذكر وبكل تأكيد كيف عشنا في تلك البيوت فيما سبق بكل الفة ومتعة وسعادة وراحة بال، وهنا يحضرني بعض الابيات لاحد الشعراء (م. عامر عبدالله) يقول:

وظل لبيتنا مجدٌ وذكرٌ فاق ذكراه
الى ان شيدت الابراج في حي سكانه
حقيراً صار مظهره وأمسى البوم يهواه
اذا مرت به الايام تبكي عند لقياه
كقبر صار منزلنا وذكر الله احياه
تكون الريح اعصاراً تسكن عند لقياه

[1] خوست، نادية، المدن العربية والمعاصرة، ص43.

[2] ابراهيم، عبد الباقي، العناصر التخطيطية للمدينة الاسلامية، مركز الدراسات التخطيطية المعمارية تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الاسلامية المعاصرة، 1982، ص47.

المصادر:

القران الكريم.

1. ابراهيم، عبد الباقي، العناصر التخطيطية للمدينة الاسلامية، مركز الدراسات التخطيطية المعمارية تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الاسلامية المعاصرة، 1982، ص47.
2. أبن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج1، ص293.
3. أبي دواود، سليمان بن الاشعت الازدي السحبستاني، ج4، 2009، ص36.
4. البلاذري، ابي العباس احمد بن يحيى، فتوح البلدان، طبعة يرويل، ليدن، 1866، ص347.
5. تنبكجي، عماد محمد عدنان، النظرة المعمارية لمسألتي السكن والاسكان، دار دمشق للطباعة الصحافة والنشر، ط1، 1991، ص23.

6.حسن، حميد محمد، البيت التراثي البصري تخطيطية وعمارتة، دور البصرة في التراث العالمي الربي، 1991، ص446.

7.حموش، مصطفى، جوهر التمدن الاسلامي، دراسة في فقه العمران، دار قابس، ط 1، لبنان، 2006، ص51.

8.خضير، فريال مصطفى، البيت العربي في العراق في العصر الاسلامي، المؤسسة العامة للاثار والتراث، بغداد، 1983، ص9.

9.خضير، فريال مصطفى، نشأة وتطور الطراز الحيري في البيت العراقي، وقائق المؤتمر التاسع / الاثار الاسلامية في الوطن العربي، تونس، 1980، ص101.

10.خوست، نادية، المدن العربية والمعاصرة، مجلة معماريون، الاردن، 1995، ص42.

11.الدراجي، حميد محمد حسن، نشأة البيت البغدادي وتطوره عبر العصور الوسطى، بغداد، 2018، ص102.

12.الريحاوي، عبد القادر، البيت في المشرق العربي الاسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص46.

13.شافعي، فريد، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، 1982، ص127.

14.عبد الرسول، سليمة، المباني التراثية في بغداد، دراسة ميدانية لجانب الكرخ، العراق، 1987، ص10

15.العبيدي، صلاح حسين والياور، طلعت، البيت العربي الاسلامي تخطيطياً ومصطلحاً، دورة اصالة انظمة المدينة العربية، مركز احياء التراث العلمي العربي، 1988، ص4.

16.علي، بسام أبراهيم، الفناء الوسطي المكشوف في العمارة العراقية حتى نهاية العصر العباسيرسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك الاردنية، 2000، ص120.

17.كمونة، حيدر، الخصوصية التراثية لتصميم المسكن العربي، مجلة التراث والحضارة، العدد 6-7، 1984، ص119.

18.كمونة، حيدر، الخصوصية التراثية لتصميم المسكن العربي، مركز التخطيط الحضري الاقليمي، بغداد، 1985، ص127.

19.كمونة، حيدر، أهم العناصر التخطيطية والمعمارية لمكونات المدينة العربية القديمة، مركز التخطيط الحضري والاقليمي، دورة اصالة انظمة المدينة العربية، 1988 ، ص6.

20.المسعودي، أبي الحسن على بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح 4، مصر 1965،ص87.

21.الوردي، علي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ، ص277.